

بـدء الـعـلـاقـات الـعـلـمـيـة بـيـن الـهـنـد وـالـعـرب

للبغاء والطغاء التسلل عبر الحدود والالتجاء بملك السند ، مما زاد في اهتمام العرب بجارتهم ، وفي الوقت الذي كانت المالك الشرقية للدولة الأموية قد استكملت قوتها واستعدادها لشن هجوم شامل براً وبحراً معاً بعد أن انتظمت أمورها وسلست صعبابها تحت امرة حاكمها الحازم ذي البأس الشديد الحاج ابن يوسف الثقفي ، في ذلك الوقت سببت الملة التجارية بصورة مالوحة في التاريخ القديم والحديث على السواء ، التدخل السياسي والعسكري من جانب العرب ، وذلك بأن بعض القراءنة استولوا بالقرب من ديبيل على مركب كان ينقل إلى العراق عدداً من الأرامل واليتامى لبعض التجار العرب الذين وافقهم آجالهم في جزيرة سيلان ثم اعتذر داهر ملك السند بعجزه عن تنفيذ طلب الحاجاج بمعاقبة الجرميين وتسليم الأسرى ، غلم يكن منه هو الآخر إلا أن ندب ابن أخيه الشاب محمد بن القاسم الثقفي لغزو السند نهائياً (3).

دخل محمد بن القاسم السند في سنة 89 هـ ووفق في إنجاز مهمته توفيقاً تماماً ، فماه تمكّن في بحر خمسة أعوام من القضاء على مملكة داهر وفتحها لل المسلمين من منابع نهر جهيلم بكثimir في الشمال إلى البحر في الجنوب ، إلى حدود مملكة فنوج (كتنوج) بالقرب من ملقان وحدود كجرات في الشرق ومنذ ذلك الحين ظل أقليم السند جزءاً من الدولة الأموية ، تماقب على حكمه عدد من الأمراء العرب ، سعى بعضهم لتوسيع نطاقه في الشرق وعلى ساحل كجرات فلم يلقو في ذلك كبير نجاح ، ولكنهم على كل حال بقوا أقوياء قادرين على اخماد الثورات مالكين لازمة الأمور في الداخل .

وهكذا أصبحت للعرب علاقات سياسية وطيدة مع الهند بعد أن كانت لهم علاقات تجارية قوية معها فيما قبل الإسلام ، وكان من المحتوم على هذه القاعدة الجديدة للعرب دخول أراضي الهند أن تصبح مبدأ

من المعروف أنه لم يكن هناك اسم واحد يطلق على الشبه قارة الهندو – الباكستانية باكملها بل كانت الأقاليم المختلفة تعرف بأسمائها كل على حدة وربما شمل اسم العاصمة جميع المناطق الواقعه تحت سلطتها أو نفوذها . وكان نهر « السند » الذي يذكره العرب القدماء باسم « مهران » – معروضاً باسمه الحالي إلى أن امتد اليه نفوذ أهل غارس في العصر القديم فسموه « هندو » جرياً على عادتهم في ابدال السين في السنسكريتية بالهاء ، ولذلك امثلة كثيرة في اللغة الفارسية القديمة . ثم جاء العرب فاتروا اسم « السند » للأراضي الواقعه على ضفتي ذلك النهر ، وبدأوا يطلقون « الهند » على ما وراءها (1) .

كان العرب قد عرقوا الهند قبل الإسلام وأحبواها إلى حد انهم اتخذوا منها أسماء لنسائهم ، ولكنهم إنما عرفوا عطورها وأحجارها وسيوفها وبنمارها ولما كانت تجارتهم عن طريق البحر كان من الطبيعي ان يقتصر اتصالهم على الشواطئ والسواحل ، ولasisma الساحل الغربي والجنوبي ، لا أدل على ذلك من أسماء في العربية هي في الأصل أسماء للأمكنة التي كانت تستورد منها مسمياتها، مثل المندل والهيل(2) ثم جاء الإسلام فصارت هذه المعرفة والصلة التجارية من أهم ما وجه المسلمين من عرب عمان والمناطق الساحلية المجاورة لها إلى شن الغارات البحريه بقيادة تأسيس دعائم حكمهم على موقع من ساحل السند وكجرات ، تهانة (تانه) بالقرب من بومباي وبهروج (بروص) وديبيل بالقرب من كراتشي ، وكان ذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي كان شديد الحذر من « من حمل الدود على العود » ثم تكررت محاولة من هذا القبيل في عهد عثمان أيضاً ، ولكن لم يكن لهذه الغزوات أثر يذكر ، ومضى العرب في هذه الأثناء قدماً من نصر إلى نصر حتى تم لهم فتح بلاد نارس كلها وصارت حدود دولتهم الشرقيه تتاخم حدود مملكة السند الغربية مباشرة بحيث تنسى

(1) الدكتور السيد سليمان الندوی : عرب وهندي تعلقات ص 12 .

(2) على الترتيب ، العود المستورد من « كورومندل » كان العرب يطلقون عليها « المعبر » أيضاً وفوه « هال » أو « هيل » (بالعامية : حب هان) المستورد من (رأس) هيلي أو « إيلي » بجنوب الهند بالقرب من كورومندل ، كانت ميناء ومدينة عاصمة أيام زيارة ابن بطوطة لها ، راجع الرحلة 81/4 .

(3) الفتوح للبلذري 431 - 432 و 435

كبيرة ، كما ان اولئك الدخلاء اقبلوا على الآخذ
بأسباب الحضارة العربية بجد واهتمام ، ولم يلبث
العبيد من اهل السندي ان بدأوا يساهمون مساهمة
فعالة في الحوادث الجارية حتى انه ذكر أن احداً منهم
(ابن زياد بن ابي ك بشه) اشترك في قتل الخليفة
الوليد بن يزيد في سنة 126 هـ (6) اما مدى سرعة
تعريبهم واندماجهم في المجتمع والثقافة العربية فيمكن
أن نقدرها بوجود علماء أجلاء أمثال ابي معاشر
نجيح بن عبد الرحمن السندي (7) وابن الاعرابي (8)
ورجال الحكومة مثل السندي بن شاهك (9) وشعراء
امثال ابي عطاء السندي وابي الصلع (10) كلهم
موال انحدروا من أصل سندي لم يتجاوز عهدهم
جيلين وثلاثة على فتح السندي ، وقد استغنىت بذلك عن التعرض للذين نشأوا فيما بعد .

لا شك ان الارتفاع وغيرهم من عامة اهل السندي
لم يكونوا ليعرفوا العرب الا ببرطانتهم وجعلهم الجيم
زاء وببعض الملح تتعلق بالمجانز والخصيان منهم (11)
وما الى ذلك من عجائب العوائد وغرائب الاخلاق كما
اشرت اليه آتنا وربما كان وجودهم مثار التساؤل بين
أهل الفكر عن مدى الحضارة والعلوم وحكمة الهند
ومبعث تطلع الذهان الى الوقوف عليها ، ولكن
التبادل العلمي ونقل الآداب الهندية الى العربية انما
كان يتوقف — ولا غرو في ذلك — على الجمع بين
الخاصة واهل العلم من الطرفين العرب والهنود ،
وهل يتأتى ذلك الا اذا استقرت الاحوال الداخلية

خط لسير العلوم والأداب الهندية الى عاصمتهم ،
ولكن الحركة — لأسباب طبيعية عامة — انما نمت
وازدهرت في العهد العباسي الأول . أما في العهد
الأموي فلا يفت نظرنا الا ظواهر معينة ، هي بمثابة
المقدمة لما نحن بصددناه في مقالنا هذا .

كان العرب قد عرّفوا من قبل الزط (جات)
والميد وهم قبيلتان من قبائل السندي عرفتا بالفزو
والنهور والثراسة فجندتها الفرس ، وربما كثروا
احتلالهما بالعرب حتى اتنا نجد عبد الله بن مسعود
يقول عن بعض من رآهم في صحبة النبي صلى الله
عليه وسلم « رجال كأنهم الزط أشعارهم وأجسامهم »
(سنن الترمذى ، باب الأمثال) مما يدل على انهم
كانوا معروفيين لدى العرب تماما في ذلك الوقت (4).

ثم بعد ان تم فتح نارس على ايدي العرب
انخرطت هاتان القبيلتان ولاسيما الزط في جنود
الاسلام : استخدمتهم على رضي الله عنه لحراسة
اموال البصرة في وقعة الجمل ، وانزلتهم معاوية في
مدن الشام الساحلية لواجهة الروم ، وعمرهم وليد
ابن عبد الملك في انتطاكية (5) . هذا ما يتعلق بالعصر
الذي سبق فتح العرب للسندي ، اما بعد ذلك فقد تيسير
للعرب أن يعرفوا لا الزط المحاربة فحسب ، بل
السنديين عامة ومن اهم ما ساعد على ذلك نقل عدد
كثير من العبيد والأماء اسرى الحرب الى العاصمة (x)
وبعض المدن الكبيرة الأخرى ، وهنالك بدأ العرب
يتبعون خصائص وعادات هذا العنصر الجديد بعنابة

(4) يرجح أن الإمام أبي حنيفة كان من سلالة هؤلاء الزط ، فاته ذكر أن جده زوطى كان من كابل (حسب الرواية المشهورة . راجع ابن خلكان وتهذيب الأسماء للتوبي) نقل الى الكوفة بين أسرى الحرب اما ادعاء حفيده اسماعيل بن حماد ، الانتساب الى أسرة مالكة من الفرس فذلك مثار محاولة معروفة حاولها كثير من الموالي لاثبات أصولهم في العز الذي نالوه في الاسلام .

(5) البلاذري الفتاح : 375 — 379 .

« انظر قول ابي النجم العجلي : علت خودا من بنات الزط الخ (الاغاني) »

(6) ابن الاثير 217/5 .

(7) شذرات الذهب 1/278 سمع عنه الواقدي بالمدينة .

(8) « كان ابا زيد عبدا سنديا » ياقوت : معجم الادباء .

(9) السندي بن شاهك مولى جعفر المنصور ، كان اميرًا على دمشق فاخرب سورها في فتنة ابي الهنadam في سنة ست وسبعين ومائة في خلافة هرون وهي القضاء ببغداد وكانت وفاته هناك . ترجمته في مرآة الزمان نسخة دار الكتب المصرية الجزء السادس الورقة 42 ، وكان للسندي هذا ابن يسمى ابراهيم روى عنه الجاحظ كثيرا (البيان والتبيين 1/141) .

(10) أبو عطاء معروف ترجمته في الاغاني وابو الصلع الهندى له ذكر في المرزباني 513 (« ابو الصلع » كذا في المهرست 164) والحيوان 171/7 .

(11) البيان والتبيين (تحقيق عبد السلام هارون) 1/70 ، 74 ، 118/1 والحيوان

وتترغ أولو الامر لتشجيع الحركات العلمية ورعاية
الادب وذويه ؟

كانت اواخر ايام بني امية الوهن والاختسال
والفتن اعقبها الانقلاب العباسي فلاقى ابو مسلم
الخراساني بعض العناء في اخضاع منصور بن جمهور
الكلبي ذلك الطاغية الذي كان قد اغتصب ولاية السند
منذ زمن غير بعيد ، ولكنه نجح اخيرا في ضم هذه
الولاية للسفاح على يد موسى بن كعب التميمي في
سنة 134 هـ . وقد اقترب ظهور العباسيين بمقتل
العاصمة من دمشق الى بغداد غازداد التقارب من
السند جفراقيا ، مع ما هو معروف عن الخلفاء
العباسيين وأعيان السلطنة في عهدهم من البيل
الشديد الى الفرس والمعجم وحضارتهم وآدابهم .

لم تكن الأمور تنظم في العهد الجديد حتى نرى
ونغدا من اهل السند يند على السفاح ، وذلك قبل
موته بثلاثة ايام (12) . لا نعلم اذا كان هذا الوفد
يضم احدا من اهل العلم ، ولكن على كل حال لم يكن
له اثر يذكر لصادفه وصوله في وقت غير ملائم .

(12) تاريخ اليعقوبي 2/433.

× قال البحتري (د الجواب 2/160) : السنت بالسند هند ذا بصر ان لم تفق حاسبه تنتصف

(13) البيروني : كتاب الهند ص 208 .

(14) عرب وهندي تعلقات ص 134 هذه الارقام معروفة عند العرب بـ « الارقام الهندية » وعند
الافرنج بـ « الارقام العربية » [Arabic figures] لأنهم بدورهم أخذوها من العرب ، أعني
عرب الاندلس وربما سماها عرب الاندلس « حساب الفبار » لأن الهند كانوا يرسمونها على
التراب او الرمل بدل اللوحة او السبورة لتعليم الاولاد كما يشاهد ذلك في بعض ارایات الهند الى يومنا
هذا . انظر قول الشاعر يصف التخت الذي يضرب عليه حساب الهند :

وقالم مداده تراب
في صحف سطورها حساب
يكثـر فيها المحو والاضراب
من غير ان يسوـد الكتاب
حتـى بين الحق والصواب
وليس اعـجام ولا اعـراب
فيه ولا شـك ولا ارتـياب

(الحصرى : زهر الاداب 2/90)

(15) هاك الانماط الهندية التي بقىت كمصطلحات علم الهيئة بالعربية : « كردجه » (الوتر المستوى)
اصلها بالسنسكريتية « كرمجيا » ، « جيب » اصلها « جيووا » ، « أوج » اصلها « اوچ » بالجيم
الفارسية ، « ارين » من « اجين » اسم بلدة في وسط الهند ، « ادماسه » اصلها « ادهماسا » .

وهذه الرواية مختلقة بدليل أن المؤرخين مجمعون على أن «برمك» لقب قديم كان يلقب به رؤساء «نوبهار» قبل الإسلام بكثير . وقال بعض آخرون أن «برمك» اسم مكان والسبة إليه «برمكي» . وأتى ابن الفقيه الهمداني وباتوت بتعليقين في منتهى الغرابة حينما قال الأول أن «برمكة» يعني حاكم مكة (17) وذلك لأن معبد بلخ كان قد أنشئ ليكون نظيراً لمكة ، وقال الثاني أن «بر» هنا بمعنى ابن وأن «برمكة» إنما يعني ابن مكة (18) وهذه الأقوال كلها ظاهرة البطلان لا تستحق التعليق عليها بشيء .

وذهب الكاتب الهندي عبد الرزاق — مؤرخ «البرامكة» (باللغة الاردوية) إلى أن أصل «برمك» هو «برمنغ» — «بر» يعني «كبير» و «منغ» [mago] باليونانية و «مجوس» بالعربية (يعني عبد النار — وعلى هذا «برمك» يكون معناه «رئيس المجوس» وهذا القول يظهر أنه قرير جداً إلى الصواب ، مع أنه لم يعرف بعد مثال آخر لإبدال «العين» «بالكان» في التعریف ، إلا أنه قد يقتضي أن نتأكد إذا كان معبد بلخ معبداً للمجوس يعبدون فيه النار أو معبداً للبوذيين يعبدون فيه الأصنام أو «البد» على حد تعبير المؤرخين العرب .

من حسن الحظ أن بآيدينا وصفاً ممهياً لهذا المعبد عند المسعودي والمهداني وياقوت يمكنا ، إذا أمعنا النظر فيه ، من الاهتمام إلى جواب على هذا السؤال وهكذا ما يقتله ياقوت عنه :

«قال عمر بن ازرق الكرمانى : كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر بلخ قبل ملوك الطوائف ، وكان دينهم عبادة الاوثان ... ونصبوا حوله (أي حول بيت النوبهار) الأصنام وزينوه بالديباج والحرير وعلقوا عليه الجوهر النفيسة ... وكانت الفرس تعظمه وتحجج إليه ، وتهدى له . وتلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قبته الأعلام ، وكانتوا يسمون أعلى قبته «الاستن» وكانت مائة ذراع في مثلثها وارتفاعها فوق مائة ذراع باروقة مستديرة حولها وكان حول البيت ثلاثة وستون متصورة لسكنها خدامه وقوامه

وعلى أثر هذه البداية الحسنة لابد أن المرأة واهل العلم في بغداد قد عرضاً واعتبروا ببراعة أهل الهند في ميادين أخرى ، ولاسيما الطب ، فلذلك نراهم يشieren على هارون الرشيد ابن مرضه باستقدام الطبيب الهندي الشهير «منكه» (مانك) وورد الطبيب الهندي فنج في علاج الخليفة وحظي عنده وبقي يشرف على نقل الكتب من اللغة السنكريتية (16) .

وفي هذه المرحلة أي بعد أن كان الطريق قد مهد لحركة نقل العلوم من الهند إلى بغداد يطالعنا التاريخ بظاهرة قوية ، يجدر بنا أن نقف عندها لعلنا نكتشفحقيقة طالما غمضت على كثير من المؤرخين التدماء والمحظى . وتلك الظاهرة هي التي أشار إليها ابن التdim بقوله :

« الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى ابن خالد وجماعة البرامكة واهتمامها بأمر الهند وأحضارها علماء طبها وحكامها » (كذا / الفهرست 345) .
فما هو مبعث هذه النزعة إلى الهند وعلومها في نفوس البرامكة ؟

لنبحث عن أصل البرامكة حتى نصل إلى جواب لهذا السؤال .

البرامكة من أصل بوذي لا مجوسى

المعروف عن البرامكة أن أجدادهم كانوا يتولون قبل الإسلام معيناً للمجوس يبلغ ، وكان «برمك» لقباً لرئيس سدنة ذلك البيت الذي كان يسمى «نوبهار» . أما أصل الكلمة «برمك» من ناحية اللغة فلم يتعرض لها القدماء ، وجاء المتأخرون من المؤرخين وأصحاب المعاجم من الغرب فقالوا بأن الكلمة مشتقة من المصدر «برمكيدن» أي المص بالفارسية وأبدوا قولهم هذا برواية مؤداها أن أول «برمك» أسلم (بعد أن خرب قتبة بن مسلم «نوبهار» في سنة 86هـ) لما وقفت أمام الخلقة أضطر إلى الاعتراف بأنه كان يحمل معه سماً في خاتمه حتى يمسنه (بالفارسية : «برمكم») إذا وجد الموت خيراً من حياة الخزي ،

(16) ابن أبي أصيبعة 2/33.

(17) كتاب البلدان ص 323 «فسموا سادتها الأكبر برمكا» ولئن منهم ذلك يسمى برمكا .

(18) معجم البلدان (نوبهار) «كانوا يسمون السادن الأكبر «برمكا» لتشبيهم البيت بهكة يسمون سادنه ابن مكة مكان كل من ولئن منهم السданة برمكا» .

ان الكتاب كانوا اعرف بكلمة « الاستن » اي العاًمود بالفارسية نحرفوا « استب » الى ذلك الشكل .

ثم هناك ادلة اخرى ترشدنا الى الجزم بأن معبد بلغ انما كان معبدا للبوذيين وهي :

1) ان بلغ جزء من اقليم خراسان وما وراء النهر ومن المحقق ان « على هذا المذهب الستمية اي البوذية ، كان اكثر هل ما وراء النهر قبل الاسلام » (الفهرست 345) .

ب) يزيد المسعودي في وصف التوبهار فيقول : « وتدذر بعض اهل الرواية والتتقرير انه قرأ على التوبهار بلغ كتابا بالفارسية ترجمته : قال بوذا سف ابواب الملوك تحتاج الى ثلاث خصال عقل وصبر ومال واذا تحته بالعربية (19) كذب بوذا سف الواجب على الحر اذا كان معه واحدة من هذه الخصال ان لا يلزم باب السلطان » .

اما « بوذا سف » فلأشك ان المراد منها « بوذا » لا غير ولعل اصلها « بودهاستور » كما ذهب اليه المحقق زخاؤ (انظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب الهند) .

وقد وردت هذه الحكاية ايضا في مسالك الابصار (224/1) لابن فضل الله العمري وهناك « سوراشف » بدل « بوذا سف » مصححا

ج) قال العمري ايضا : « بناء منوشهر الهندي وكان يأتيه من الصابئة من يتقرب بالقمر » لا يستبعد ان يكون المراد من المتقررين بالقمر « الهندوس » لا غير بناء على ان البعض يرون ان اصل « هندو » هو « اندو » اي القمر (قارن المسعودي : « التوبهار ... بناء منوشهر ... على اسم القمر ») .

د) قد ورد لهذا المعبد ذكر كمعبد للبوذيين في مذكرات السائح الصيني هوان كوانك الذي زار بلغ في القرن السابع الميلادي اي قبيل او بعيد فتح العرب لها (دائرة المعارف الاسلامية » Barmakids .

نهل من شك في ان التوبهار لم يكن بيتا من بيوت النار يعبد فيه الموسى بل انما كان معبدا للبوذيين يعبدون فيه الاصنام او « البد » واذا وثقنا من هذا خلص من الصعب الاهتداء الى ان اصل التوبهار هو « توبهار » وهار اسم معروف لمعبد البوذيين والخاتمة حوله ولا

وسنته ، وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود الى الخدمة حولا كاملا ، ويقال ان الريح ربما حملت الحرير من العلم الذي نوق القبة متلقيه بترمذ وبينهما اثنا عشر فرسخا ... وكانت ملوك الهند والصين وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج الى هذا البيت ، وكانت سنتهم اذا هم وافوه ان يسجدوا للصنم الاكبر ويقبلوا بدبرمك » .

هذا الوصف ليقوت في معجم البلدان (التوبهار) يطابق لنظرا ما اوردته الهمданى (البلدان ص 3 - 322) بحيث يصبح من المؤكد أنها استقياه من مصدر واحد وان لم يذكر هو الآخر اسم عمر بن ازرق الكرمانى كما نعلم يقوت هو الاول . كذلك يوافق هذا الوصف معنى ما جاء في مروج الذهب - 48 / 4 - للمسعودي (ايضا آثار البلاد للقزويني 221) ومما يجدر باللاحظة والتتبه عليه في هذا الوصف :

اولا : لم يرد فيه ذكر النار حتى يقال ان التوبهار كان بيتا من بيوت النار .

ثانيا : بالعكس نص فيه على ان معبد بلغ لم يتجاوز ان يكون بيتا لعبادة الاوثان والاصنام التي كان من بينها « الصنم الاكبر » الذي كانت سنتهم اذا هم وافوه ، ان يسجدوا له .

ثالثا : من المعروف ان « ملوك الهند والصين وكابل شاه » ولنضف اليهم نيزك طرخان ملك تركستان الذي جاء عنه في الهمدانى ويقوت (وستقل هذه القطعة فيما بعد) انه غصب من قبول البراكحة الاسلام وزحف اليهم بجيشه ونقل بهم كل هؤلاء الملوك لم يكونوا يدينون الا بالدين البوذى (Budhism) .

رابعا : ان (« الاستن » « آسبت » « است ») ليست الا اشكالا محرفة لكلمة « استب » بالأصل « استوب » (stupa) وهي تطلق على معبد البوذيين الذي اودع فيه رماد جثة بوذا ، وقد كان الرماد قسم ودفن داخل قباب بمئذنة في عدد من الممالك التي كانت البوذية سائدة فيها ، ولا تزال المعابد من هذا النوع موجودة في الهند منها « استوب سانجي » بالقرب من مستوطنه رامي مدينة بونال في وسط الهند . يظهر

(19) في مسالك الابصار : « ثم لما ملك الاسلام مدينة بلغ ، كتب تحت هذه الكتابة بالعربية ... الخ » .

هـما المستشر قان زخاو (مقدمة الترجمة الانجليزية
للكتاب الهند من 31) وبرتهالد (Barthold) (دائرة
المعارف الاسلامية) (Barmakids) كما ان الاول هو
الذى بحث عن الأصل المنسكريتى لكلمة « برمك »
ثم تتبع نتائجهما الكاتب الهندي الدكتور السيد سليمان
الندوى الذى يرجع اليه الفضل في بسط الدلائل كما
قد اقتبسها هنا من كتابه « عرب وهندي تعلقات
102 - 124 ، ثم يمضي الدكتور السيد سليمان
الندوى خطوة اخرى فبلغت النظرى الى ان القول
بانحدار البرامكة من أصل ايراني ينتقض ايضا بما جاء
به ابن النقيه الهمданى (وياقوت حرفا بحرف) وهذا
نصـ :

« فلم يزل يليها برمك الى ان فتحت خرسان ايام عثمان بن عفان وقد صارت المسدافة الى برمك ابى برمك ابى خالد فوجه برمك الى عثمان فى الرهان فورد المدينة ورغم فى الاسلام فأسلم وسمى عبد الله ورجع الى ولده وصارت البرمكة فى بعض ولده مكتب بعض الملوك الى برمك يعظم ما اتى من الاسلام ويذعوه الى الرجوع فى دين آبائه فكتب اليه برمك انى انما دخلت فيه اختيارا وعلما بفضلة عن غير رهبة (ولا رغبة) (20) ولا ارجع الى دين بادى العوار متهلك للاستار فقضى الملك وزحف الى برمك بجمع كثيف فكتب اليه برمك قد عرفت جبى للسلامة واتى ان استتجدت عليك الملوك انجدوني فانصرف والا صرت الى لقائك ، فانصرف عنه ووادعه ثم لم يزل ذلك الملك واسمها نازك (نيزك) طرخان يفتر برمك ويطلبه حتى بيته وقتله وعشرة بنين له فلم يبق لهم برمك سوى برمك ابى خالد فحملته امه وهربت به وكان صغيرا الى بلاد قشمير ، فنشأ برمك وتعلم النجوم والطب وأنواع الحكمة ، وبقي على شركه وأصحابهم وباء فتشاعموا بمفارقة دينهم فكتبوا الى برمك فتقدم عليهم فاجلسوه في موضع ابيه فتولى امر التوبهار فسمى برمكا وتزوج ابنته ملك الصفانيان فولدت له الحسن وبه كان يكنى وخالدا وعمرا وام خالد ، وسليمان بن برمك من امراة غيرها من اهل بخارى وكان صاحب بخارى اهدى الى برمك جارية فولدت له كالل بن برمك وام القاسم وبنتا اخرى (كتاب البلاد 323 - 324).

يزال اقليم الهند الشمالية الذي ولد فيه بوذا يسمى « بيهار » (Bihar) الى وقتنا هذا . وليس بمستغرب ان خفي الامر على العرب فانهم كانوا اعرف بكلمة « بيهار » الفارسية فلذلك قالوا : « وتفسير النوبهار البهار الجديد لأن « نو » الجديد ، وكانت سنته اذا بنوا بناء حسنا او عقدوا بابا جديدا او طلطا شريشا كللوه بالريحان وتوجوا بذلك باول ريحان يطلع في ذلك الوقت ، غلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه اول ما يظهر من الريحان ، وكان البهار نسمى نوبهار لذلك » (ياقوت) ، هذا وقد اتفق للعرب ابان فتحهم للسندي « ان عرفا معباد للبوذيين من قبيل وهار ، وهك مسا اورده اللاذري في وصف واحد منها :

وكان بالديبل بد عظيم عليه دقل طويل وعلى
الدقل رأية حمراء اذا هبت الريح اطانت بالدينة ،
وكانت تدور ، والبد فيما ذكروا منارة عظيمة يتخذ في
بناء لهم فيه صنم لهم او اصنام ليشهر بها وقد يكون
الصنم في داخل المنارة ايضا ، وكل شيء اعظموه من
طريق العبادة فهو عندهم بد والصنم بد ايضا » .

او لا تؤكّد المقارنة بين وصف معبود البوذيين هذا وبين وصف التوبهار بأن الواحِد لم يختلف عن الآخر ؟ كذلك نرى العرب يخبطون خطط عشوائية في تفسير «برمك» فلنهم لم يكونوا ليتصوروا أن تكون كلمة «مك (مكا) » غير «مكة» فاضطروا إلى القول إن البرامكة «وصفت لهم مكة وحال الكعبة بها ولما كانت قريش ومن والاها من العرب يأتون إليها ويعظمونها فاختذوا بيت التوبهار مضاهة لبيت الله الحرام » (ياقوت) أما «بر» فقد كان في متناولهم الكلمة «بور» بمعنى الابن بالفارسية فلجلأوا إليها . ثم جاء المؤرخون واللغويون من الفرس فلم يكن منهم إلا ان اعتنوا على علمهم باللغة الفارسية فتخرصوا بأن تكون «برمك» مشتقة من «برمكيندن» ثم دعموا هذا التخرص برواية مختلفة كما مر . ولكن الحقيقة التي تترجم «وهار» واباها هي أن «برمك» أصلها باللغة السنسكريتية «برمك» ومعناها الصدر أو ذو الرئاسة العليا ، لم يلقب بهذا اللقب أحد من سادة بيوت النار أو معابد المجوس ، بل إنها اختص به رؤساء التوبهار لاسم ذكرناها آنفا .

ولعل من الواجب في هذا المقام أن أثبت أن أول من أشار إلى كون «النوبهار» معيلاً للبليومنيين (وهار)

(20) كذا . زيادة في ابن الفقيه لا توجد في ياقوت .

الكتب من المنسكرينية (الفهرست 2/45) ثم انظر إلى جعفر البرمكي يقدم صالح بهلة إلى الرشيد لمعالجة ابن عمه ابراهيم بن صالح (21) وينبع أبان الشاعر جائزه تدرها مائة ألف درهم على نظمه قمة كليلة ودمنة (22) أما قصب السبق في هذا الميدان فكان ليحيى بن خالد — حفيد أبي خالد الذي نشأ في بلاد تشميم وتعلم هناك « النجوم والطب وأنواع الحكمة » شأنه هو الذي جلب من الهند علماء وأطباء أمثال بهلة ومنكهة وبازيرك قبرقل وسندباد الذين أقاموا ببغداد ، وربما أسلم بعض أولادهم مثل صالح بن بهلة والذين عرفوا العرب الطب والبلاغة عند أهل الهند (23) ، ولكن أهم الأعمال التي تمت على يدي يحيى بن خالد اطلاقا هو إرساله رجلا فيبعثة علمية إلى الهند « ليأتيه بعثارات موجودة في بلادهم وأن يكتب له أدريائهم » (الفهرست 345) فنان التقرير الذي وضعه هذا البعض ربما كان هو الرجع الوحيد للعرب والمسلمين في كل ما يتعلق بالموضوع طوال مدة قرنين إلى ظهور ذلك النابغة الحق أبي ريحان البيروني . وقد وقع في يد ابن النديم نسخة من هذا التقرير مكتوبة « يوم الجمعة لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وأربعين ومائتين » ومطابقة حرقا حرقا نسخة أخرى بخط يعقوب بن اسحق الكوفي ، أورد منه ابن النديم مقتطفات تتضمن وصفنا لبعض المعابد وفرق الهند (الفهرست 345 — 349) ونجد بمقارنة بعض أجزاء هذه المقتطفات بما جاء في كتاب البدء والتاريخ (9/4 إلى 19) أن مؤلفه مطر بن طاهر المقدس ، ربما اقتبس من ذلك المصدر نفسه . ثم أن بيان مطر ابن طاهر المقدس كانه جزء مما جاء (مترجم بالفارسية) في كتاب زين الاخبار لكرديزي في هذا الباب (24) وقد نص الكرديزي على أنه أخذ عن كتاب التوارييخ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وزير بنى سامان (أوائل القرن الرابع الهجري) ويذهب البروفسور مينورسكي إلى أن الجيهاني ربما اعتمد بدوره على كتاب المسالك الكبير (أصل المختصر الذي نشره دي غويه) لأن خردانبه . هذا وقد عثرت أخيرا على مخطوطتين في كتاب اخبار الزمان المنسوب إلى المسعودي (القاهرة 1938 م من 27)

هذا وقد جاء في التويري (نهاية الارب 29/12) عن محمد بن العباس المكي عن الاسباب التي حملت البرامكة على اللجوء إلى الهند ما هو أقرب إلى الصواب فإنه يقول : « لما قلت الاموال في أيديهم (الأمويين) شرعوا في مصادرات الرعایا وأخذوا الاموال من غير وجهها وتعرضوا إلى أموال الأوقاف والإيتام فتعرضوا ولاة خراسان لبرمكولولده وطالبوها بالأموال وكان تحت يد برمه أوقاف جليلة مهرب هو وولده من أعمال خراسان إلى بلاد الهند فاتماها بما إلى أن ظهرت الدولة العباسية ... ثم قدم خالد بن برمه وأخوه الحسين واهلهما على المتصور ، أبس جعفر لما افضت الخلافة إليه فاصطعنهم وادناهم وترتهم الخ (نفس الرواية في صبح الاعشى 2/126)

ولا يجرئ بنا أن نتساءل : لماذا هربت أم أبي خالد إلى بلاد قشمير ؟ لأن أصل البرامكة كان من الهند لا من ايران ولا يخفى أن قشمير كانت مركزا من مراكز البوذية مثل خراسان وتركستان وهناك نشأ برمه أبو خالد على دين آبائه . لاشك أن الفرس أدعوا انتفاء البرامكة إلى جاماسب وزير كستانسب ليثبتوا أنها أسرة ايرانية عريقة في الوزارة ، كما أن العرب حاولوا ضم عظمة البرامكة إلى أنفسهم بدعوى أن أم خالد جلتة من عبد الله أخي قتببة لكنها دعاو بقيت موضع الشك إلى أيامنا هذه . أما الماء الشعراة إلى عبادة النار في معرض هجو البرامكة فمن السهل جدا عدم الأخذ به لجهل العرب عامة بالفرق بين المجوس والبوذيين ولاطلاقهم « الموس » على العجم كلهم . وأخيرا لا ننسى أنه كان في مصلحة البرامكة التضامن مع الفرس لأغراض سياسية ظاهرة .

اذن يتضح لنا كل الوضوح تلك الظاهرة القوية التي تستوقف كل من يتبع حركة نقل العلوم والأدلة الهندية إلى بغداد ، وهي عنابة البرامكة الثامة بهذا الموضوع ، فانتها نراهم يستخدمون جميع الوسائل الممكنة لعرض ما للهند على العرب وهم في ذلك يبدون كأنهم يعرضون شيئا من عندهم على غيرهم . انتظر اليهم يستخدمون ابن دهن فيمهدون إليه بإدارة المستشفى المعروف باسمهم والاشراف على ترجمة

(21) ابن أبي أصيحة 34/2 .

(22) الجهمياري 259

(23) البيان والتبيين 1 / 92 — منه كان صحيح الاسلام ، كذا في الحيوان 7/213 .

V. Minorsky: Gardizi on India, Bulletin of Lond on, School of Oriental Studies, 1948, XII/3 & 4.

كأنهما أصل الترجمة الواردة في كردبزي (البندان 41 و 42).

هذا هو الجو الذي ازدهرت فيه حركة نقل العلوم والآداب الهندية الى العرب وانما تصدنا الى ابراز بعض العوامل التي ساعدت في قيامها ، ولاشك أنها بدأت قوية بحيث تكونت للعرب في اوائل القرن الثالث للمigration نكرة واضحة جلية عن مدى براعتها

المهند في العلوم والفنون المختلفة ، كما بسطها الجاحظ في رسالة فخر السودان على البيضان ، وكما يجعلها قوله : « انما الامم المذكورون من جميع الناس اربع : العرب وفارس والمهد والروم » (البيان والتبيين 1/137) اما استقمام نتائج هذه الحركة فهو موضوع مستقل لا سيما اذا تذكرنا أنها استمرت فيما بعد الى ان بلغت ذروتها في شخصية البيروني الذي مر ذكره آنفا .

البرانس (جبال) :

جبال البرانس ويقول لها العرب ايضا جبال البرنات ويقولون اذا تجاوزت معابر البرانصة فاعلم انك قد دخلت في افريقيا (الحل السندينية في الاخبار والآثار الاندلسية لشيكيب ارسلان ج 1 ص 24 ط مصر 1355 - 1936) وذكر ارسلان انها تسمى ايضا الجبل الحاجز او الفاصل (ص 36) ويسمون جبال فشتالة بجبل الشارات .